أي أن ذلك المنتظر سيأتي في الأسبوع الـ٢٥١، أي بعد وفاة موسى ـ عليه السلام ـ بنحو ١٧٥٠ : ١٧٥٧ سنة.

ومن المدهش أن نبي الإسلام حسب أغلب الروايات ولد في العام «٥٧٠م» تقريباً، أي في التاريخ نفسه الذي أشار إليه موسى ـ عليه السلام.

لأنه إذا كان خروج موسى ـ عليه السلام ـ من مصر كما تحدده مقدمة الكتاب المقدس، طبعة دار المشرق بيروت، كان بين سنة ١٢٥٠ و١٢٣٠ق.م تقريباً، وكان موسى ـ عليه السلام ـ على أرجح الآراء، لم يدخل أرض الميعاد ومات في أواخر زمن التيه، إذاً لابد أن يكون موسى ـ عليه السلام ـ قد مات بعد قرابة أربعين عاماً من ذلك التاريخ (زمن التيه كما ذكر القرآن في سورة المائدة: ٢٦، وسفر العدد ١٤:٣٣).

إذن: ١٢٥٠ – ٤٠ = ١٢١٠، أو ١٢٣٠ – ٤٠ = ١١٩٠، إذاً فقد مات موسى ـ عليه السلام ـ بين سنة ١١٩٠ق.م، وسنة ١٢١٠ق.م تقريباً.

> وردت البشارات على لسان موسى ﷺ في أحد الأسفار التي لم يشتهر أمرها

فإذا كان مجيء ذلك المنتظر قد حدده موسى ـ عليه السلام ـ بعد هذا التاريخ بنحو ١٧٥٠ : ١٧٥٧ سنة، فهو إذاً لابد أن يكون نحو سنة: ١٧٥٧ – ١١٩٠ = ٥٦٧م، أو نحو سنة ١٧٥٠ – ١١٩٠ = ٥٦٠م، أو سنة ١٧٥٧ – ١٢١٠ =٥٤٧، أو نحو سنة ١٧٥٠ – ١٢١٠ = ٥٤٠م، أي في الثلث الأوسط من القرن السادس الميلادي تقريباً.

فصدق موسى في نبوته، وصدق محمد في دعوته، وجعلنا الله معهما من الصديقين عليهما صلاة الله وسلامه أجمعين ■

منهج المستشرقين في دراسة السيرة النبوية

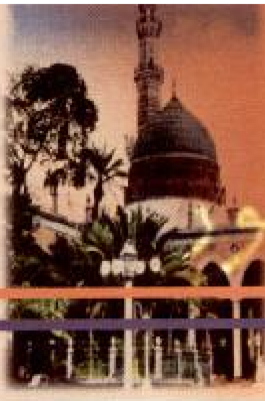
> المستشرق الألماني «بروكلمان»: إن شدة تفكير محمد ﷺ فيما عليه قومه من شرك وضلال خلق في ذهنه فكرة دين جديد يصلح به حال البلاد والعباد

بقلم: د. أحمد نصري

أستاذ باحث في جامعة الحسن الثاني. كلية الآداب. المحمدية. المغرب

لقد ظل الخلل المنهجي في التحليلات والدراسات الاستشراقية، يشكل إحدى السمات البارزة في التعامل مع السيرة النبوية الكريمة، حيث ظلت هذه الدراسات سجينة مواصفات العقل الغربي الذي تشكل من خلال الرواسب الدينية للعصور الوسطى، والنزعة العلمانية الثائرة على الكنيسة، والاعتماد على المسلمات المادية الوضعية للأشياء، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس العياني، ولا قيمة لما سواه من الظواهر الدينية الغيبية والأخلاقية القيمية، بل ذهب الغرور العلمي ببعض الدارسين الغربيين والمستشرقين إلى حد الاعتقاد بأنه في الإمكان فهم المسائل الغيبية بالوسائل العلمية النسبية، فظهرت العلوم الإنسانية التي وإن استطاعت أن تتوصل إلى نتائج مهمة على مستوى الحياة الاجتماعية في علاقاتها المختلفة، إلا أن دراستها للأديان كانت بعيدة عن أي نجاح أو تقدم واستعصى عليها اختراق حجب عالم الغيب الذي يعلو على كل بحث علمي مجرد، ويستحيل تلمسه بالعين المجردة تحت مجهر المختبرات، بحيث وقفت دراساتهم عند حدود «ظواهر الأشياء» ولم تستشف ما وراء هذه الظواهر.

لهذا فليس بمستغرب أن تظهر في دراسات المستشرقين لسيرة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، صفات بشرية عامة كالبطولة والعبقرية والعظمة، قصد تجريده من صفة «النبي»، يقول د «محمد سعيد رمضان البوطي»: «إنك لتراهم ـ أي المستشرقون ـ يمجدون شخص محمد،



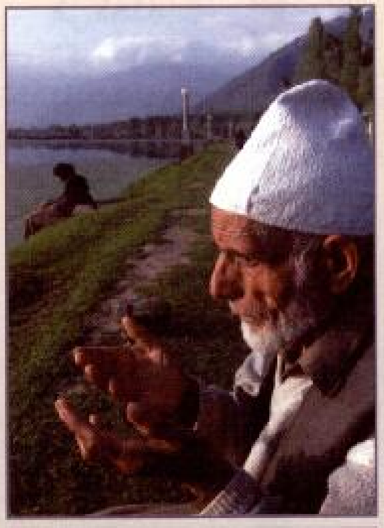
صلى الله عليه وسلم، وينوّهون بعظمته وصفاته الحميدة، ولكن بعيداً عن كل ما قد ينبّه القارئ إلى شيء من معنى النبوة أو الوحي في حياته، وبعيداً عن الاهتمام بالأسانيد والروايات التي قد يضطرهم الأخذ بها إلى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم اعتمادها أو الاهتمام بها»(١).

ويتجلى ذلك في أبهى صورة في التساؤل الذي أثاره المستشرق البولندي الأصل الفرنسي الجنسية «M.Kasimirski» عن الظروف التي حملت الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الاعتقاد بأنه أوحي إليه، فأجاب قائلاً: «لنكن حذرين، فعند كثير من الموحى إليهم، وكذلك عند كثير من الناس لا توجد فكرة واضحة للاختلاف الموجود بين الموضوعية الصحيحة والذاتية الضرورية، إنه من العسير أن نستعمل دائماً في ظل هذا الغموض اسم مكر أو خبث، ولن يفيد أيضاً أن نزعم أنه كان مصاباً بالصرع أو فريسة لحالة جنون ديني، إن الحالة النفسية غير الطبيعية لن تكون لتناقش، إن ما يهم، ليس أنه يشبه المصروع أو المجنون، ولكن بالتحديد ما هو وجه الاختلاف بينه وبين هؤلاء المجانين والمصروعين، فهناك مجانين كثيرون ومصروعون كثيرون، لكن لم يكن أحد منهم مؤسساً لديانة»(٢).

ليس بمستغرب أن تظهر في دراسات المستشرقين لسيرة النبي ﷺ صفات بشرية كالبطولة والعبقرية والعظمة

وتحدث «إدوارد مونتيه» E.Monter عن حال الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، وتصور أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان على استعداد كامل لاستقبال الوحي من شدة ما عاناه من الأزمات التي صادفته في صغره، وزاد على أن جعل هذه الأزمات سبباً في إصابة محمد بالهذيان، حتى أخذت تتجلى له الملائكة في خلوته»(٣).

وذكر المستشرق الألماني «كارل بروكلمان» أن شدة تفكير محمد، صلى الله عليه وسلم، فيما عليه قومه من شرك وضلال خلق في ذهنه فكرة دين جديد يصلح به حال العباد والبلاد، يقول «بروكلمان»: «أغلب الظن أن محمداً قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جداً، وهو أمر لم يكن مستغرباً عند



متمسكون بسنة النبي رغم التحديات.

أصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمئهم الروحي»(٤).

وقريب من هذا، قول المستشرق الفرنسي «موريس غودفري ديمومبين» Maurice Gaudefroy Demombynes: «إن النبي كان تائهاً عبر الجبل، مثل أي شاعر، باحثاً عن الإلهام، واعتكف في غار حراء إلى أن أصابه فوحان إلهي»(٥).

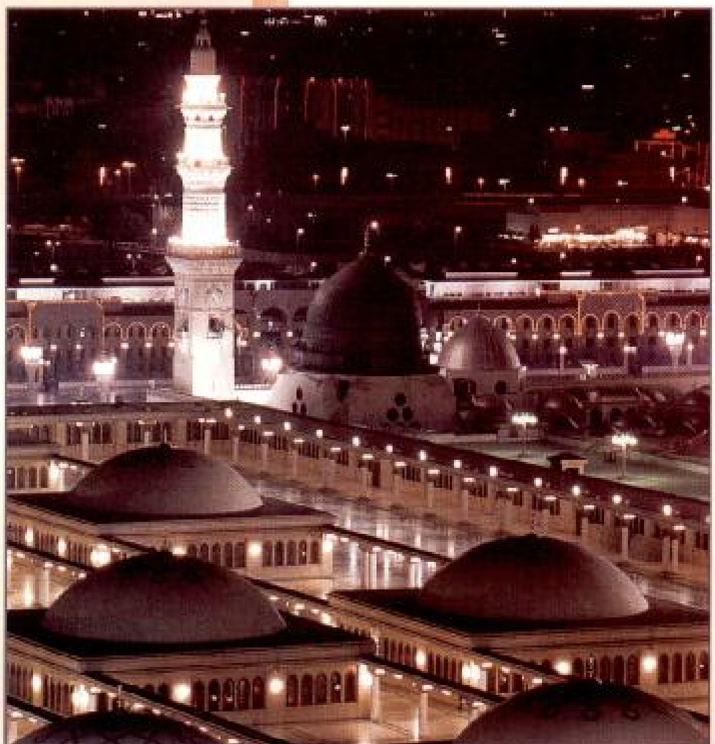
إن هذه الصورة التي حدّد معالمها هؤلاء المستشرقون، تتسم بكثير من المغالطات والأكاذيب والادعاءات الزائفة التي ملاكها الجهل بسيرة محمد، صلى الله عليه وسلم، التي تخبرنا أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يلتفت إلى أمر النبوة ولم يعبأ بها ولم يسع إليها، بل كان منذ طفولته ميالاً إلى الوحدة، تواقاً إلى العزلة، مبتعداً عن جهالة قومه وضلالاتهم، تاركاً عبادتهم، فلم يعبد معهم صنماً ولا عظم وثناً، يقول «محمد رشيد رضا»: «التحقيق في صفة حال محمد، صلى الله عليه وسلم، من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إيّاه لنبوته ورسالته: هو أنه خلقه كامل الفطرة ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني ليبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه بغض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبّب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات والملذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة، كأكل أموال الناس بالباطل، ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به وجعله المثل البشري الأعلى لتنفيذ ما يوجهه إليه الشرع الأعلى»(٦).

نستنتج من هذا، أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، كان غافلاً عن أمر الوحي، لم يفكر فيه قطعاً ولم يبحث عنه، فلو كان الأمر كما يدّعون، ما كان له أن يشعر بالرعب والخوف عندما رأى جبريل - عليه السلام - وسمع صوته حتى إنه قطع خلوته، وعاد إلى بيته مسرعاً.

تروي أحاديث بدء الوحي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، خاف على نفسه لما رأى الملك للمرة الأولى، ولم تجد زوجته خديجة، رضي الله عنها، أمامها من وسيلة لتهدئ من روعه - عليه الصلاة والسلام - سوى أن تذكره بما سلف من عمله الصالح، وخلقه الطيب، فقالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(٧)، ثم أخذته بعد ذلك إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» ليفسر له الحال التي كان عليها ويطمئنه على نفسه، فقال له ورقة: «يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بما رأى، فقال له «ورقة»: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أوَ مُخرجي هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك لأنصرك نصراً مؤزراً»(٨).

فهذا ليس شأن من يفكر في الوحي ويبحث عن النبوة، يقول «عبدالرحمن السهيلي»: «كل حديث يزعم فيه أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يعرف فيه أنه نبي، هو حديث كذب لا يعتد به، لأنه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يعرف حتى ليلة الوحي أنه نبي»(٩).

«فالوحي حقيقة مستقلة خارجة عن ذاتية محمد، صلى الله عليه وسلم، وعن شعوره بعيدة عن خياله الداخلي»(١٠). كما يقول المستشرق الفرنسي «مكسيم ردنسون» ولم تكن للرسول، صلى الله عليه وسلم، يد في إحداث النبوة، فلم يتفق أبداً أنه سعى أن يكون نبياً رسولاً، بينما الذي حدث أن الله تعالى اختاره، على الرغم من كل الظروف المعاكسة لذلك الاختيار، إذ لم تكن حال محمد، صلى الله عليه وسلم، تؤهله لتولي أي شأن من شؤون قريش الدينية أو الدنيوية، وإن عُرف عندهم بالأمين «لما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة»(١١)، وأحبوه لذلك، كما أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، لم يظهر - طوال الفترة السابقة على النبوة - بأي مظهر عقلي أو علمي ولا حتى مادي ينبئ بمستقبله، وأنى له ذلك وهو اليتيم الفقير الأمي الذي لم يملك من أسباب الغنى والقوة ما يعينه على بلوغ مركز السلطة والجاه ويجعله في نظر قومه عظيماً وعزيزاً. وهذا ما جعلهم ينكرون عليه «النبوة» وينفون عنه «الوحي»، لأنه - بمقاييسهم البشرية المحضة - ليس هو الشخص المناسب لهذه المهمة الربانية، (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً. أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً. تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) الفرقان: ٧ - ١٠.



النبوة قمة العظمة.

ورغم ذلك، حاول بعض المستشرقين في تحليلهم لظاهرة الوحي، تطبيق المنهج النفسي، وتقديمها في صورة انحرافات نفسية، كما فعل المفكر الفرنسي «غوستاف لوبون»، حين قال: «يجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم لا ذوو المزاج البارد من



المفكرين، هم الذين ينشؤون الديانات ويقودون الناس، وإنما أولوا الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور... وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثاروا الجموع، وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر»(١٢).

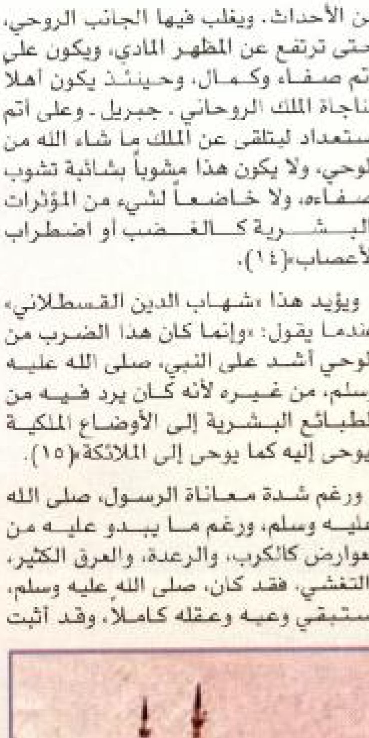
غير أنه لم يثبت تاريخياً سواء قبل البعثة أو بعدها، أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، كان من المتهوسين أو صاحب سلوك شاذ، حتى في الحالات الصعبة من الوحي حين كان يأتيه مثل صلصلة الجرس(١٣)، إلى درجة أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، مما يدل على كثرة معاناته - عليه الصلاة والسلام - من التعب والكرب، والسبب كما يذكر الشيخ «الكرماني» - رحمه الله - «أن الله سبحانه وتعالى أراد التقريب بين رسول روحي الذي هو جبريل عليه السلام، ورسول بشري من الناس الذي هو محمد، صلى الله عليه وسلم، وهنا تظهر قدرة الله في نفس محمد، صلى الله عليه وسلم، فيجردها من المؤثرات والعوارض المادية، كالمرض والخطأ، والنسيان، ومن شواغل الحياة الدنيا ويطهرها

«لم يثبت تاريخياً سواء قبل البعثة أو بعدها أن محمداً، ﷺ، كان من المتهوسين»

من الأحداث. ويغلب فيها الجانب الروحي، حتى ترتفع عن المظهر المادي، ويكون على أتم صفاء وكمال، وحينئذ يكون أهلاً لمناجاة الملك الروحاني - جبريل - وعلى أتم استعداد ليتلقى عن الملك ما شاء الله من الوحي، ولا يكون هذا مشوباً بشائبة تشوب صفاءه، ولا خاضعاً لشيء من المؤثرات البشرية كالغضب أو اضطراب الأعصاب»(١٤).

ويؤيد هذا «شهاب الدين القسطلاني» عندما يقول: «وإنما كان هذا الضرب من الوحي أشد على النبي، صلى الله عليه وسلم، من غيره لأنه كان يرد فيه من الطبائع البشرية إلى الأوضاع الملكية فيوحى إليه كما يوحى إلى الملائكة»(١٥).

ورغم شدة معاناة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ورغم ما يبدو عليه من العوارض كالكرب، والرعدة، والعرق الكثير، والتغشي، فقد كان، صلى الله عليه وسلم، يستبقي وعيه وعقله كاملاً، وقد أثبت



دعوة مرتبطة بالسماء لا يمكن ان تنهزم

لنفسه ذلك حين قال مرة: «فيفصم عني وقد وعيت ما قال»، وقوله مرة أخرى: «فيكلمني فأعي ما يقول».

«وبهذا الوعي الكامل، نرى المباينة والمناقضة بين الوحي وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه، وتبرد الأطراف وتصطك الأسنان، وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيِّم ظلام الجهل، لأنها كانت كما علمت مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته»(١٦).

يقول «مالك بن نبي»: «إذا نظرنا إلى حال النبي، صلى الله عليه وسلم، وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتع الرجل بحال عادية، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها على حين يمحى وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فالحال بناء على هذه الملاحظات ليست حال مرض كالتشنج»(١٧).

ونشير هنا إلى أن هذه الأعراض الجسمية لا تظهر إلا في اللحظة الخاطفة للوحي فقط، فبالرجوع إلى المرحلة التاريخية التي عاش فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، تتكشف بالأدلة مدى سلامة الرسول عقلياً، تمثل ذلك في سلوكه ومعاملاته، يقول الدكتور «أحمد محمد العليمي»: «لقد كان محمد، صلى الله عليه وسلم، عجيبة من العجائب، عظمات.. لا تحد.

شخوص كثيرة مجتمعة في شخص واحد، كل واحد منها متكامل في ذاته كأنه متخصص في جانبه منقطع له... ثم تجتمع الشخوص كلها - على تكامل كل منها - فتتكامل على نطاق أوسع وتتناسق في محيطها الشامل، وتتألف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس، وتجمعها في توازن واتساق.

روح شفافة عظيمة.

وقوة حيوية فيَّاضة تعدل وحدها أشد الناس حيوية لو كان متخصصاً فيها بلا زيادة.

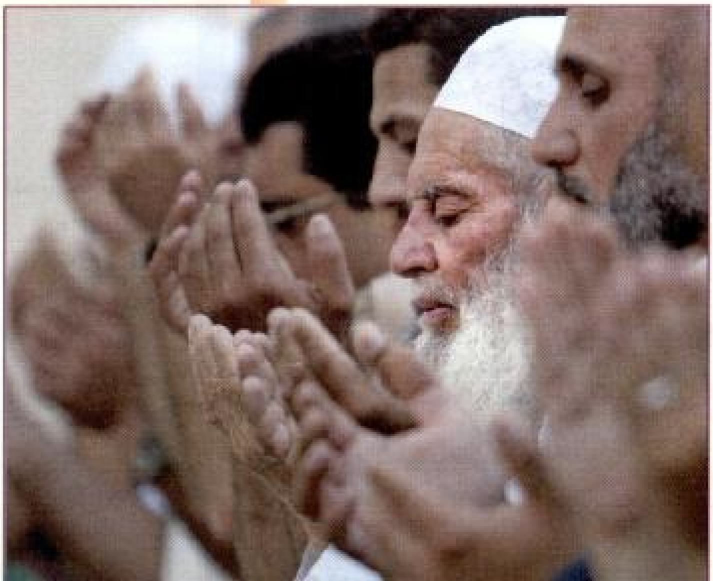
ورجل سياسة يشيِّد أمة من الفئات المتناثرة، فإذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في التاريخ، ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وروحه وجهده ومشاعره ما يشغل ـ وحده ـ حياته كاملة بل حيوات.

ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر... كقائد متخصص كل همِّه القتال متفرغاً له عن كل ما عداه.

وأب وزوج ورب أسرة كبيرة كثيرة النفقات.. نفقات النفس والفكر والشعور، فضلاً عن نفقات المال... كرجل متخصص للأبوة على أعلى نسق شهدته الأرض، ومتخصص للأسرة لا يشغله عنها شاغل من الحياة.

وعابد متحنث لربه، كرجل منقطع للعبادة، متخصص لأدائها، لا تصله بالأرض رابطة، ولا يشغله هم من الهموم، ولا تجيش في نفسه نوازع، ولا تنحرف في كيانه رغبات.

ومع ذلك فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض، الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل، وتغلغلت في كيانه، فمدته على أقصى اتساع.



على طريق الهداية سائرون.

عظمات ... لا تحد.

كل هذه الشخوص المتفرقة مجموعة في شخصه، مجموعة على تناسق وتوافق واتزان، كل منها يأخذ نصيبه كاملاً من نفسه ومع ذلك لا يميل، لأن طاقات أخرى عظيمة توازنه في كل اتجاه.

ذلك هو محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم، النور الكوني الذي بهر العالمين.

وحق للناس أن يحبوه كل ذلك الحب، ويعجبوا به ويتبعوه».(١٨)

•• الهوامش ••

١ ـ فقه السيرة، ص٢٦.

2 - M. Kasimirski, Cran, Tome premier, p. 12 - 13.

3 - E.Monte, l'Islam, p.112.

٤ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي.

5 - Maurice Gaudefroy Demombynes, Mahomet, p. 68.

٦ ـ الوحي المحمدي، ص١١٢.

٧ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ج١، ص٢٢.

٨ ـ المصدر نفسه.

٩ ـ الروض الأنف، ج٢، ص١٧٠، تحقيق وتعليق وشرح عبدالرحمن الوكيل.

11 - Maxime Radinson, Mohamet, p. 100.

١١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ص١٧٢، تحقيق علي محمد بجاوي.

١٢ ـ حضارة العرب، ص١٤٤، نقله إلى العربية: عادل زعيتر.

١٢ ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً». صحيح البخاري بشرح الكرماني، باب كيف كان بدء نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، ج١، ص ٢٥ ـ ٢٨.

١٤ ـ المصدر نفسه، ج١، ص٢٨.

١٥ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ص ٥٩.

١٦ ـ النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز، ص ٧٢.

١٧ ـ الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

١٨ ـ طرائق النبي صلى الله عليه وسلم، في تعليم أصحابه رضوان الله عليهم، ص ٥٨ ـ ٥٩.